تفسير سورة العنكبوت

للدكتور فضل عباس

- ٦ -

بسم الله الرحمن الرحيم

وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين (٣٦) فكذّبوه فأخذتهم الرّجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٣٧) وعاداً وثمود وقد تبيّن لكم من مساكنهم وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السّبيل وكانوا مستبصرين (٣٨) وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبيّنات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين (٣٩) فكلاًّ أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصّيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٤٠) مثل الّذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون (٤١) إنّ الله يعلم مايدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم (٤٢) وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها الاّ العالمون (٤٣) خلق الله السّموات والأرض بالحقّ إنّ في ذلك لآية للمؤمنين (٤٤)

صدق الله العظيم

الآيات ٣٦ ـ ٤٤

« والى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوْا في الارض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ».

هذه قصة أخرى مما جاء في السورة الكريمة ، ونلاحظ أنها جاءت موجزة قد طويت كثير من أحداثها جرياً على عادة القرآن التي تحدثنا عنها من قبل . ولا ننسى أن آيات هذه السورة الكريمة جاءت دروساً للدعاة الى الله ، تثبتهم فيكفي هذا المرور السريع على ذلك الصراع المستمر في عمق الزمن .

وشعيب عليه السلام يظهر لنا ، حسب استقراء الآيات الكريمة ، أنه كان من حيث الزمان في الحقبة ما بين لوط وموسى عليهما السلام ، أما من حيث المكان فإقامته مدين ، ويظهر أنها لا تبعد كثيراً عن مساكن لوط ، يدلنا على ذلك ما نقرؤه من قول الله على لسان شعيب يخاطب قومه « **وما قوم لوط منكم ببعيد** » . . سورة هود . .

ومدين هذه هي التي جاءها سيدنا موسى عليه السلام وهو آت من مصر ، ويظهر أن قوم شعيب كانت تفشو فيهم بعض الرذائل غير الشرك ، فكانوا يطففون الكيل والميزان ويبخسون الناس أشياءهم ويفسدون في الأرض ويجلسون على مجامع الطرقات لإيذاء الناس والصد عن سبيل الله وهذه كلها نقرؤها في سورة الأعراف « **وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين** » .

ولقد بذل شعيب مع قومه طاقته لكن القوم استمروا في الإعراض وقالوا مستهزئين « **أصلاتك تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا أو ان نفعل في اموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد** (١) » .

فقال بكل رحابة صدر « **يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد ان اخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت**

---

(١) سورة هود آيه ٨٧

وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب »

وقالوا مهددين : « **يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز** (١) » .

فرد عليهم ثابت الجأش مستنكراً ومنكراً قولهم متوعداً واثقاً بنصر ربه متحبباً علهم يؤمنون « **يا قوم أرهطي اعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربي بما تعملون محيط** (٢) .

وكانت خاتمة المطاف ان اخذتهم الصيحة من السماء فأصبحوا كأن لم يغنوا في هذه الدنيا ألا بعداً لمدين وبعداً للخاسرين جميعاً .

وفي الآيات التي معنا يقول شعيب « **يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر** » ورجاء اليوم الآخر إنما يكون بالإيمان بما فيه من حساب وجزاء وبالعمل من أجل ذلك ومن ذلك الترقب والخوف فمن كان يرجو اليوم الآخر لم يرض به بديلا ، أما الذين رضوا بالحياة العاجلة واطمأنوا بها ولها فهؤلاء لا يرجون اليوم الآخر ، فلا بد أن تكون جهنم لهم نزلا وهذا ما بينه قوله تعالى في سورة يونس « **ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون** » .

ثم قال شعيب « **ولا تعثوا في الأرض مفسدين** » ، **والعثو كالعيث هو العمل بالافساد وكأنه فيه زيادة افساد او زيادة تأكيد** (٣) ، **والعثو في الأرض فساداً يشمل كل مالا يليق من تطفيف الكيل وأكل حقوق الناس والصد عن الحق** .

« **فكذبوه فأخذتهم الرجفة** » كذبوه فيما أخبرهم به من أنه رسول أوفيما توعدهم به من العذاب ، فأخذتهم الرجفة وهى الزلزلة التي ترتجف لها القلوب والجوارح وهذا لا ينافي ما جاء في آية أخرى من أنهم اخذوا بالصيحة لأن الصيحة والرجفة متلازمتان فالرجفة التي حدثت لهم

---

(١) سورة هود آية ٩١
(٢) سورة هود آية ٩٢
(٣) وهذا ما ذهب اليه أكثر المفسرين حيث قالوا ان قوله تعالى مفسدين حال مؤكدة فاعتبروا العثو والفساد شيئاً واحداً .

إنما كانت بسبب صيحة جبريل عليه السلام فالصيحة أمر علوي نتجت عنه تلك الرجفة السفلية « **فأصبحوا في دارهم جاثمين** » أي أصبحوا في منازلهم جثثا هامدة لا حراك فيها واصل الجثوم الجثو على الركب والمقصود به ، هنا ، الهلاك .

ومن لطائف البيان في هذه الآيات هذه الفاءات المتعاقبة التي تمر كالأشرطة السريعة لتترك في النفس آثارها « **فكذبوه ، فأخذتهم ، فأصبحوا** » ولا ننسى قوله تعالى في دارهم ولم يقل في ديارهم كما جاء ذلك في جانب الصيحة فيمكن أن يراد من الدار هنا البلد ، أي فأصبحوا في بلدهم ويمكن أن يكون الافراد إشارة الى أن الصيحة كانت قوية بحيث هدمت الأسقف والجدران فأصبحت وكأنها بيت واحد ، وعلى كل حال إنه القرآن المعجز في كل كلمة من كلماته .

وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين» أي وأهلكنا عاداً وثمود بسبب تكذيبهم هوداً وصالحاً عليهما السلام وقد تبين لكم من مساكنهم فأمرهم ليس غريبا عليكم لأنهم عرب مثلكم ولأنكم تمرون بمنازلهم ومساكنهم في رحلاتكم ، فثمود مساكنها الحجر وهي طريقهم الى الشام ، وعاد مساكنها الأحقاف من اليمن وهم يكثرون التنقل بينهما شتاء وصيفاً ، لذا قال القرآن وقد تبين(١) لكم من مساكنهم ، أي والحال أنه قد تبين لكم حالهم بسبب مساكنهم التي تمرون بها فتجدونها خالية خاوية ويمكن ان يكون المعنى قد تبينت لكم مساكنهم التي تمرون بها (فمن) على المعنى الأول للسببية ، وعلى الثاني للاستغراق ، « **وزين لهم الشيطان اعمالهم** » والتزيين اذا نسب الى الشيطان كان المراد منه الوسوسة والإغواء أي وسوس لهم الشيطان وأغواهم وأراهم خيرة اعمالهم فصدهم عن السبيل أي حال بينهم وبين الحق الذي ينبغي أن يتبعوه والطريق المستقيم الذي ينبغي أن يسلك «**وكانوا مستبصرين**» أي وكانوا عقلاء يميزون بين الخير والشر ذوي بصر في الأمور ومعرفة فلم تكن عقولهم مستورة ، ولا حواسهم معطلة . . . وهذا مما تلزمهم به الحجة لأن الله قد وهبهم ومنحهم الاستعدادات والآلات التي تمكنهم من المعرفة فتناسوها وعطلوها ، وهنا درس لابد أن يعيه

---

(١) تدغم الدال هنا بالتاء (وقتبين) لان الدال والتاء متجانسان اتفقا مخرجاً واختلفا صفة فحذار من اظهار الدال .

كل داع للحق وهو ان ايمان الناس أو عدمه ليس تابعاً لقوة العقل ، او عامل الذكاء ، أو قوة المنطق والحجة..وهذا ما يرشد اليه قوله تعالى ـ **وكـــانوا مستبصرين** ـ فالإيمان ، اذن ، نفحة ونور ومنحة ونعمة يعطيها الله لمن يستحقها،نسأل اللهان نكون منهؤلاء.

وقـــارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينـــات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين » أي وأهلكنا قارون وهو الذي يضرب به المثل من كثرة ماله ، وهو من بني اسرائيل ، وكان من قوم موسى إلا أنه طغى بسبب المال وإنما قدم بالذكر هنا على فرعون اما تسلية للرسول عليه وآله الصلاة والسـلام كـأنه يقول له لست اول من آذاك قومك فهذا موسى عليه السلام كان أول من آذاه قارون وهو من قومه واما ان يكون التقدم لعلمه بـالتوراة واستعبـاره بهـا ثم انسلاخه من ذلك كله فهو يناسب حال المستبصرين الذين ذكروا قبله وهذا امر مخوف حقاً فالعلم والاستعبار قد لا يوصلان الى السعادة وذلك اذا كانا خاليين من مراقبة الله .

« **ولقد جاءهم موسى بالبينات** » وهي الآيات التي أرسله الله بها لكن القوم لم ينصاعوا فأهلكوا كما سنقرأ ذلك في كتاب الله .

« **فاستكبروا في الأرض وماكانوا سابقين** » وكان من استكبار قارون انه قـــال حينما ذكر بنعم الله **إنمـــا اوتيته على علم عندي** » اما استكبار فرعون وهامان فهو واضح لا يحتاج الى شرح .

« **ومـــا كانوا سابقين** » أي ماكانواسابقينلغيرهممن الامموالافراد الذين اهلكنـــاهم بسبـــب عتوهم واعراضهم أو ما كانوا ليفوتوا الله فيسلموا من عقابه وذلك مثل قولهتعالى « **ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون** » سورة الانفال .

« **فكلا اخذنـــا بذنبه فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا ومنهم من اخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من اغرقنا وماكان الله ليظلمهم ولكن كـــانوا انفسهم يظلمون** » ما أشد حاجتنا ان نتدبر هذه الآية الكريمة فقد جاءت تبين النتيجة لكل المعرضين والمكابرين الذين يستهينون بالذنوب والمعاصي أي فأهلكنا كل واحد ممن ذكر وأخذناه بذنبه فلم نأخذه رغبة من الانتقام وانما اهلكناه

بسبب ما ارتكب من الذنوب ، وبينت الآية الكريمة نوع هذا الاهلاك « **فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا** » وهي الريح التي تحمل الحصباء كما حدث لعاد وقوم لوط لأن عاداً اهلكوا بريح صرصر عاتية ، ولأن قوم لوط امطروا بحجارة من سجيل « **ومنهم من اخذته الصيحة** » كما حدث لثمود واصحاب مدين « **ومنهم من خسفنا به الارض** » كما حدث لقارون « **ومنهم من اغرقنا** » كما حدث لقوم نوح ولفرعون، واذا امعنا النظر وجدنا هذه الانواع من الاهلاك قد جاءت متناسبة مع الذنوب التي كان يفعلها اولئك واذا كانت تلك الذنوب كانت نتيجتها ما اخبرنا الله عنه فما بالك بأمة فعلتها مجتمعة إن في ذلك لعبرة ، لقد عاش قوم لوط في انحلال وعدم مبالاة . ولقد طفف قوم شعيب الكيل والميزان ولقد غرت عاداً قوتهم وغر قارون ماله وأفسد فرعون في الارض وهذه مع كل اسف نجدها منتشرة في امتنا فكان لزاماً ان تلقى الجزاء وصدق الله « **ومن اعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا** » سورة طه . ولقد بين الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ان هذه الامة كلما ازدادت ذنوبها وتنوعت ازداد سخط الله عليها فأصابها بأنواع من العذاب فقد أخرج الحاكم عن علي كرم الله وجهه يرفعه اذا ابغضت هذه الامة علماءها ويعني بهم العاملين واقاموا على عمارة اسواقهم وتألبوا على جمع الدراهم ابتلاهم الله بأربع خصال بالقحط من الزمان والجور من السلطان والخيانة من ولاة الحكام والصولة من العدو .

وأخرج بن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً « يا معشر المهاجرين خمس اذا ابتليتم بهن واعوذ بالله ان تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها الا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في اسلافهم الذين مضوا ولم ينقصوا المكيال والميزان الا أخذوا بالسنين وشدة المؤنه وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة اموالهم الا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله الا سلط الله علهيم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم ومالم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » .

والأحاديث في هذا كثيرة وهي ترشدنا الى مكامن الداء ونافع الدواء .

« **وما كان الله ليظلمهم** » أي ما كان الله مريداً ظلمهم لأن الله لا يظلم احداً او ما كان الله ليعاملهم معاملة الظالم لان الله لا يحب الظالمين « **ولكن كانوا انفسهم يظلمون** » وذلك لأنهم ابوا الانصياع الى الحق واستهوتهم الشهوة العاجلة وركنوا الى الشيطان ولم يراعوا جانب الله فكانت تلك عاقبتهم وعاقبة أمثالهم ، اذن هم الذين ظلموا انفسهم « **وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون** » سورة الشعراء .

مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

هذا مقطع آخر في السورة الكريمة فبعد أن بينت السورة أخبار بعض الامم وما حل بهم من عقاب الله تعالى بين في هذه الآية مثل لكل الذين خرجوا عن الجادة فعبدوا غير الله او اعتمدوا على غيره سبحانه حباً اوخوفاً او رجاء . والمثل هو الحال والصفة فمثل هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً لا يقي شيئاً . ولقد جاء الاعجاز في الآية الكريمة واضحاً أتم الوضوح فهذا المثل ضرب للذين أتخذوا من دون الله أولياء ولم يقل آلهة أو أرباباً لأن كثيرين ممن يزعمون أنهم يعبدون الله أو يدعون أنهم يؤمنون بالله يوالون غيره سبحانه ويتكلون على غيره وينقادون الىسواه فلا يحلون ما أحل ولا يحرمون ما حرم ولا يحكمون ما أنزل ولا يرتضون ما شرع وهم يخشون غيره كما يخشونه او اشد باعوا الآخرة بالأولى والدين بالهوى يكتفون من الاسلام بشكليات ومظاهر لا تغني شيئاً لأولئك جاء المثل في الآية الكريمة ناعياً عليهم صنيعهم نافياً عنهم أشرف ما يميز الأنسان عن غيره وهو العلم ، والعنكبوت تطلق على الواحد والجمع والذكر والانثى ، ولذا اقترن الفعل بتاء التأنيث وتقرير المثل في الآية الكريمة مثل هؤلاء الذين اتخذوا أولياء فأحبوهم كحب المؤمنين لربهم وكان رجاؤهم فيهم وخوفهم منهم كرجاء المؤمنين رحمة ربهم وخوفهم عذابه مثل هؤلاء في الحقيقة كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً لكنه لا يدفع عنها ضرراً ولا يرد

عنها أقل المؤثرات ولا يدفع عنها أي سوء فما اشبه اولئك المتخذين بالعنكبوت وما أشبه اوليـاءهم ببيت العنكبوت وصدق الله « **يدعو من دون الله مالا يضـره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيـد يدعو لمن ضره اقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير** » سورة الحج وصدق الله « **ارأيتم ما تدعون من دون الله ان ارادني الله بضر هل هن كاشفات ضره او برحمة هل هـن ممسكـات رحمتـه قـل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون** » سورة الزمر. « **وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كـانوا يعلمون** » هذا تقرير وتذييل لهذا المثل وقد جاء بهذه التأكيدات الكثيرة (إن وأوهن واللام والجملة الاسمية) كل هذه تأكيدات لضعف هذا البيت والمقصود من ذلك توهين ما يعتمد عليه اولئك من دون الله كأنه يقول لهم : اذا كـان بيت العنكبوت اضعف البيوت فـان من اتخذتموهم اولياء لن يقلوا ضعفاً امام عظمة الله وتصريفه للامور عن وهن بيت العنكبوت ومعنى قوله تعالى « **لو كانوا يعلمون** » أي لو كانوا يعلمون الضار من النافع والحق من الباطل ما اتخذوا من دون الله اوليـاء فيكون الفعل (يعلمون) متعديـاً ويمكن ان يكون المعنى لو كـانوا من اهل العلم فيكون الفعل قد استعمل لازماً وهذا فيه من البلاغة ما فيه لأنه نفى للعلم عنهم بالكلية كأنه يقول لو كان عندهم أي علم مهما كان ضئيلا ما اتخذوا من دون الله متكلا ومعتمداً ، ومافسرنا به الآية الكريمة هو ما درج عليه جمهور المفسرين من ان العنكبوت تطلق على الذكر والانثى ومن ان المقصود بالوهن الضعف لكننا رأينا بعض المحدثين ممن يحاولون استخراج المكتشفات العلمية من القرآن الكريم ليبرهنوا على اعجازه يذهبون في تفسير الآية مذهباً آخر ، قالوا ان القرآن الكريم قال اتخذت بيتاً ولم يقل اتخذ بيتاً لأنه ثبت علمياً ان انثى العنكبوت هى التي تبني البيت وليس الذكر وقالوا كذلك ان الوهن المقصود في الآية الكريمة ليس الضعف المادي لأن خيط العنكبوت أقوى من غيره من الاشياء الصلبة فقوته مثلا تزيد على خيط مماثل له من الحرير مرات عديدة فالمقصود بالوهن اذن امر آخر غير الضعف المادي وهو ان بيت العنكبوت لا تتم فيه مقومـات البيت من الامن والاستقرار لان انثى العنكبوت حينما تلقح من ذكرها تقتله وتأكله ولذا فهو لا يـألو جهداً بعد

عملية اللقاح ان يفر هارباً وكذلك تفعل مع اولادها واقول ان صح هذا القول علمياً فهو لا يتنافى مع تفسير الجمهور فضلا عما فيه من اشارات تنبىء عن عظمة هذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه .

« **ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم** » اذا كان هؤلاء لا يعلمون فقل لهم ان الله يعلم وقوله تعالى ما يدعون من دونه يمكن ان تكون جملة استفهامية كأن الكلام تم عند قوله يعلم ثم قال ما يدعون من دونه من شيء أي ما الذي يدعونه هؤلاء أي شيء هو هل هنالك يمكن ان يدعى من دونه سبحانه فتكون (من) الثانية بيانية او دالة على الاستغراق ويمكن ان تكون (ما) نافية كأنه قال ما تدعون من دونه اي لستم تدعون من دونه او ليسوا يدعون من دونه (على القرائتين السابقتين) شيئاً يستحق ان يدعى وعلى هذين التفسيرين أعني كون (ما) استفهامية أو نافية يكون المقصود تجهيل أولئك المتخذين ويمكن أن تكون (ما) اسم موصول معمولاً ليعلم متصلاً به والمعنى على هذا ؛ إن الله يعلم الذين يدعونهم من دون الله بشراً كانوا أو غير بشر ويكون هذا تهديداً لهم أي الله يعلم عبادتكم وعملكم ولمن تتوجهون وعلى من تتوكلون وسيجازيكم على ذلك كله وهو العزيز الذي لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب ومن أراد عز الدارين فعليه طاعة العزيز (**الحكيم**) الذي يفعل ما تقتضيه الحكمة فإن عجل عذابكم فلحكمة وان أخره فلحكمة يا حاكمي وحكيمي أفعالك الكل حكمة ،

« **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون** » هذا بيان لحكمة ورود الأمثال في كتاب الله والمثل تتشوق اليه النفوس لأنه يقرب لها كل صعب ويجسد لها المعاني بصورة محسوسة تنجذب اليها بطبعها ولقد كثر في القرآن الكريم ضرب الأمثال والمثل تشبيه حالة بحالة ، وكما أن القرآن عني بالأمثال عنيت بها السنة كذلك وما أكثر الأمثال في أقواله عليه وآله الصلاة والسلام ولكن هذه الأمثال التي ضربت للناس لعلهم يتفكرون لا يعقلها ويتأثر بها فتثمر وتؤتي النتائج الخيرة الطيبة لا يعقلها بهذا المعنى إلا العالمون فالعالم إذن هو من يتأثر بالمثل فيؤثر في نفسه وينقله من حالة الى حالة هذا هو العالم حقاً وليس الذي تعلم صرف الكلام ليأسر به قلوب الناس ويصرف اليه أنظارهم وفي هذا يقول سيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام

« العالم من عقل عن ربه وعمل بطاعته وتجنب معصيته (١) هـؤلاء العالمون الذين عقلوا فسمت أرواحهم وزكت قلوبهم وأخلصت لله أقوالهم وأعمالهم وما أعظم هذه الآية الكريمة التي تضع كل واحد منا على بساط النقد البناء وقد نقل صاحب المحاسن عن عمر بن مرة قوله : ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأني سمعت الله تعالى يقول « **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** » .

وتلك الأمثال نضربها للناس « **خلق الله السموات والأرض بالحـق إن في ذلك لآية للمؤمنين** » بعد أن بـين الله تبارك وتعالى ضلال الذين لا يعتمدون عليه في أرزاقهم وولائهم وأحكامهم وتشريعاتهم وبين علمه المحيط بكل شيء بين في هذه الآية الكريمة قدرته على كل شيء ومن كان محيط العلم، عظيم القدرة فهو الذي يستحق العبادة وهـو الذي يجب أن يركن اليـه ويعتمد عليه وأي مظهر من مظاهر القدرة أعظم من خلق السموات والأرض « **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » غافر .

ومعنى خلق السموات والأرض بالحـق أن الله خلقهما لحكمة بالغة فما خلقهما لعباً ولا لهواً « **وماخلقنا السموات والأرض ومـا بينهما لاعبين** » **سورة الدخان** . بل خلقهما فأقامهما على أساس ثابت من الحق ويدلل على هذا النظام البديع الذي ليس فيه خـرق ولا خلل وان شئت أن تتأكد من ذلك ومن أن الكون يكمل بعضه بعضاً « **ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت** » إن شئت ذلك « **فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير** » معنا خلقهما بالحق انهما لا تخضعان لشهوة منتقم أو اسراف مبذر ، أو اقتار بخيل معنى خلقهـما بالحق ، أن القوانين الثابتة التي هي من سنن الله لا يراعي فيها أحد ولا يجارى فيها أحد بـل هي خاضعة لمقدمات ونتائج « **ولن تجد لسنة الله تبديلا** » إن في ذلك لآية للمؤمنين في ذلك كله علامة واضحة ودليل لا يتطرق اليـه احتمال أو شك على أنه سبحانه هو الذي يستحق أن يدعى ويعبد ويهرع اليه في المهمات والملمات ويسود شريعة الكون كله ويحكم النفوس والعقول وانما خص المؤمنين هنا ، ولم يقل أن في ذلك لآية للعالمين لان المؤمنين هم الذين يتأثرون ويتدبرون فكأنهم المقصودون بالذكر لأنهم ذكروا الله في نفوسهم فذكرهم الله.

---

(١) أخرجه محي السنة الامام البغوي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية « وتلك الأمثال . . » فقال « العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته وتجنب سخطه » .